**3- الممارسات الطقسية في المناسبات والأماكن الدينية:**

**من الآليات الضبطية العرفيّة التي تستخدمها المجتمعات القديمة والحديثة على حدٍ سواء، وإن اختلف زمان ومكان ممارستها، هي الممارسات التي تحدث في مناسبات مثل الزواج والوفاة والميلاد والأعياد الدينية لمختلف الأديان، حيث يضبط الأفراد سلوكهم وفقاً لأصولها وسننها، فالمسلمون يحتفلون بعيد الفطر وعيد الأضحى ويلتزمون بصيام شهر رمضان الكريم، ويتقيّدون بالضوابط الدينية عند تواجدهم في الأماكن المقدسة احتراماً للشعائر والطقوس، وهكذا بقية المذاهب والأديان.**

**وتمارس بعض المجتمعات البدائية طقوس الانتقال"[[1]](#footnote-1)\*"، تلك الطقوس التي تقام عند مرور الشخص بمرحلة هامة تتغير فيها منزلته الاجتماعية مثل مرحلة بلوغه سن الحلم، أوسن الزواج، أو عند انضمامه إلى شخص آخر، أو جماعة أخرى، أو عند مجيئه إلى الدنيا أو رحيله عنها. والغرض من إقامة هذه الطقوس هو الاعتراف بذلك التغير وإزالة التوترات والقلق وتعزيز الثقة عند الأفراد واكتساب المكانة الجديدة المتناسبة مع أعمارهم.**

**4- الحسد أو إصابة العين:Jealousy**

**إن الحسد أو إصابة العين هي إحدى المعتقدات الشعبية الشائعة في العالم القديم والحديث بوصفها آلية ضبطية عرفية تشير إلى أن الفرد سواء كان ذكراً أم أنثى يمتلك القدرة على إلحاق الأذى بغيره من الأفراد أو ممتلكاتهم، وأن ذلك يتم بشكل إرادي أو غير إرادي عن طريق مجرد النظر إلى ذلك الشخص أو إلى ممتلكاته، أو عن طريق الإطراء، وجدير بالذكر أن الحسد نوعان: محمود ومذموم والأول يسمى" الغبطة"، وهو أن يتمنى المرء مثل ما عند الغير من غير زوال ما عنده، ولا يكنّ في القلب غيرَة عليه أو حسد، وهو من التنافس المشروع، وقد وردت عدة أحاديث نبوية شريفة عنه منها: عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي:( لا حسد إلاّ في اثنتين رجل أتاه الله مالاً فَسُلّطَ على هَلَكَته في الحق ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويُعّلمُها).وفي حديث آخر عن النبي قال: ( لا حسد إلاّ في اثنتين رجلُ أتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار ورجلُ أتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار).والثاني "المذموم" وهو تمني زوال ما عند الغير من الخير، وهذا محرّم، وورد التعوذ منه في قوله : ﴿ وَمِنْ شَرِ حاسِدٍ إذا حَسَدْ﴾.وفي قول النبي الكريم : ( لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث).وقوله : ( إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب).**

**وقد يتراوح أذى الحسد المذموم بين فقدان الشهية والتقيؤ والحمى والموت بالنسبة للشخص الذي يقع ضحية العين الشريرة، بينما يلحق التلف بالأشياء المادية. تتضمن وسائل الوقاية من الحسد أو إصابة العين الشريرة، حجب الميزات غير المتوفرة لدى الآخرين، أو التقليل من إظهارها أمامهم، أو استخدام التمائم والتعاويذ وأداء بعض الإشارات باليد لإبعاد الأذى، أو التعوذ ببعض الصيغ اللفظية قبل أو بعد إطراء ومدح الشخص وغير ذلك من الوسائل التي تسردها كتب الفلكلور بكثير من التفاصيل ومن مختلف المجتمعات العربية أو اليهودية أو مجتمعات الشرق الأوسط وعدد من المجتمعات الأوربية وعدد من قبائل أفريقيا.**

**وقد أكد "ابن خلدون" "1332-1406" أن ضربة العين تعد ملكة طبيعية غريزية وليست مكتسبة ولا تتوقف على رغبة الشخص أو إرادته. كذلك أشار إلى العين الشريرة عالم الانثربولوجيا البريطاني "إيفانز بريجارد"E. Pritchard "1902-1974" عند دراسته لقبائل الزانديZande " [[2]](#footnote-2)•" في جنوب السودان حيث أكد أنها تؤلف نوعاً من الأفكار يمكن فهمها بسهولة وربطها بمختلف أنواع النشاط الاجتماعي بل وبالبناء الاجتماعي وبحياة الفرد عند الزاندي، فالعين الشريرة والعرافة والسحر تؤلف نسقاً مركباً من العقائد تجعل الفرد الزاندي منضبطاً إلى درجة كبيرة.وهذه الآلية تفعل فعلها بين الأفراد والعوام أكثر من الناضجين وبين الأحداث أكثر من المتعلمين والناضجين، وبين النساء أكثر من الرجال، وبين حديثي الغنى أكثر من المترعرعين فيه.**

**4- الأمثال والأقوال المأثورة:**

**تعد الحِكم والأمثال والأقوال المأثورة آلية ضبطية عرفيّة هامة للسيطرة على الرأي والسلوك. وتستخدم كإطار مرجعي لتحديد سلوك الأفراد وتوجيهه نحو خبرة اجتماعية عاشتها أجيال واختبرت نجاحها، لذا تمثل نوعاً من السلطة الأدبية تستمدّها من فكر الجماعة ومن منطلق العقل الجمعي، لذلك فإن الأفراد يستشهدون بها في كتاباتهم وأحاديثهم اليومية، ويدعمون بها آرائهم وحججهم، ويعتمدون عليها في تبرير كثير من أعمالهم.**

**والأمثال الشعبية بصفة خاصة تقوم بدور هام في الحياة بما لها من قيمة تربوية تهذيبية كبرى، لذلك من الخطأ أن ينظر إليها على أساس أنها مجرد شكل من أشكال الفولكلور، أو مستند اثنوغرافي خاص بأحوال الشعوب، لكنها في الواقع عمل كلامي يدعو قوة معينة إلى التحرك، وفي اعتقاد الذين يصدر عنهم هذا الكلام، أنه يؤدي إلى أقوى أنواع التأثير على مجرى الأمور وعلى السلوك الإنساني.**

**ويمكن تلخيص أهمية الأمثال في أنها بشرية وواقعية تتحدث عن السعادة والشقاء، والغنى والفقر، واليسر والعسر، والجمال والقبح، والقوة والضعف والكرم والبخل.. الخ من جوانب الحياة الإنسانية. كما أنها من الناحية العملية تريح النفس وتواسيها بما تتضمّنه من حكمة وفلسفة عملية. هذا فضلاً عن ما تنطوي عليه من أحكام خلقية، فهي تستقبح الرذيلة، وتمجّد الفضيلة بالعبارة الصريحة، أو بالكتابة والعبارات المفعمة بالسخرية.**

**وهكذا نرى أن للأمثال تأثيراً سحرياً على تفكير الناس وتصرفاتهم، فهي سريعة النفاذ على العقول والنفوس لأنها تكون في الغالب قصيرة واضحة موسيقية التركيب ذات وقع طيّب على السمع.**

**وهذه الأمثال والأقوال منها يتصل بالنواحي السياسية مثل قولهم " آفة الجند مخالفة القادة" ومثله "الناس على دين ملوكهم" وقولهم " صوت الشعب صوت الله"، أو يتصل بالنواحي الاقتصادية مثل قولهم " القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود" وقولهم "حب المال أصل الشرور جميعاً"، وقولهم "الطائر المبكر يفوز بالدودة" و" الفقر ليس إثماً"، ومنها يتصل بالنواحي الأخلاقية مثل قولهم "خذ الرفيق قبل الطريق" وقولهم " الجار قبل الدار" وقولهم " تموت الحرة ولا تأكل ثدييها"، وقد يسودها الطابع الجمالي مثل قولهم " لبّس البوصة تبقى عروسه"، أو يسودها الطابع الديني حيث تكون أمضى تأثيراً في النفوس، وتعد ضابطاً قوياً لأنها تستند على أساس قوي يدعمها ويشد من أزرها مثل قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾وقوله أيضاً: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَان، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِْ﴾، وفي قوله:﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ وقولـه أيضاً: ﴿ وَلَا يَـحِيقُ الْمـَكْرُ السـَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلـِه﴾. وغيرها من الآيات الكريمة "[[3]](#footnote-3)•" والأقوال ذات القدسية في نفوس الأفراد حتى أصبحت جزءاً من سلوكهم لاسيما في المجتمعات ذات الحضارات العريقة مثل المجتمع العربي واليوناني والصيني والهندي ..الخ.**

**إن المجتمع الإنساني عرف منذ بداية تكوينه أنماطاً مختلفة من تنظيم العلاقات الاجتماعية بين أعضائه. ووضع قواعد مختلفة للسلوك في كافة المواقف، ووضع أنواعاً من الجزاءات التي يواجه بها حالات عدم الامتثال لمعاييره وقواعده. وتنّفذ تلك القواعد من خلال مجموعة آليات ضابطة تتخذ شكلاً رسمياً محدداً، وتقوم بوضعها جهات رسمية وتشرف على تطبيقها وتنفيذها هيئات متخصصة، ومن هذه الآليات الضابطة ما يأتي:-**

**1-التنظيمات العقابية:**

**تعد هذه الآلية عقابية أكثر من كونها ضبطية وتقويمية، والغاية منها إعادة تنشئة المنحرف وإعادته إلى الهيئة الاجتماعية مرة أخرى، وهي بذلك تعمل على تدعيم معايير الجماعة من خلال تنفيذها العقوبات ضد الأشخاص الخارجين على تلك المعايير والقواعد، لذا فهي تحقق ردعاً خاصاً للجاني وإجباره على الالتزام مرة أخرى بالمعيار الذي خرج عليهSpecific Deterrence ، ومن جهة أخرى تعمل على تدعيم هذا المعيار وتعزيزه لدى أعضاء الجماعة ككل- ردع عام-General Deterrence .**

**وتستخدم هذه الآلية عندما تفشل آليات المجتمع العرفيّة في ضبط سلوكيات الأشخاص التي انحرفت عن قواعده ومعاييره، ومن أمثلة هذه التنظيمات، السجون ومستشفيات الأمراض العقلية والعصبية.**

**2-الإلزام القسري:**

**إن نوعية الجزاءات التي تمارسها التنظيمات العقابية إنما هي جزاءات قانونية رسمية تقوم على أساس مادي مثل الجلد والغرامة والسجن والإعدام.(51) وكثيراً ما تتميز هذه الآلية بالقمع والعنف لأجل إلزام الخارجين على المعايير القانونية بالخضوع لها لأنها تمثل جزءاً هاماً وفعالاً من النظام الاجتماعي، وتستخدم بشكل خاص لدى الأنظمة السياسية الشمولية، لاسيما أثناء الاضطرابات السياسية والأزمات الاقتصادية حيث تظهر هذه الآلية بقوة وتفرض سيطرتها بقسوة، عكس المجتمعات ذات التنوع السياسي فإنها تستخدم هذه الآلية بهدف الإصلاح والتقويم.**

**3-أجهزة التصوير والتسجيل:**

**تستخدم المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً آلات تصويرية تلفزيونية لتصوير المخالفين والخارجين على القوانين الاقتصادية والسياسية والتجارية والصناعية، فقد وضعت الشركات والمصانع والبنوك والفنادق الكبيرة ومحطات القطارات والمطارات والأسواق التجارية والمستشفيات أجهزة في مداخل بناياتها لتصوير الداخلين إليها والخارجين منها ورصد كافة حركاتهم داخل ممراتها ومكاتبها. وهذه الأجهزة وضِعت لغرض مراقبة اللصوص والخارجين على القانون وهي بذلك تساعد على ضبط السلوك وتفعّل القانون في المجتمعات الصناعية، يضاف على ذلك كثير من الأجهزة الدقيقة لكشف المخمورين من قائدي المركبات وكشف العملات المزيفة وكشف الكذب.. الخ وهذه الوسائل تعد من المبتكرات الحديثة لضبط سلوك الناس.ولم تبقَ حكراً على المجتمعات الصناعية بل انشرت في معظم المجتمعات بما فيها المجتمعات التي توصف بالنامية.**

**ويضيف "معن خليل عمر" في كتابه" البناء الاجتماعي" إلى الآليات السابقة آليات ضبطية مشتركة تستخدم في المجتمعات التقليدية والريفية والصناعية على حد سواء، وقد تأخذ الجانب الرسمي أو العرفي لكي تجبر الأشخاص على الالتزام بالمعايير والقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع أو تخضع الأشخاص للإلزام بفقرات القانون الراعي في البلد، ومنها ما يأتي:-**

**أ- السخرية:**

**آلية رمزية تستخدم الألفاظ وحركات الوجه للتعبير عن الاستهزاء أو الاستهجان من السلوكيات غير المألوفة أو الخارجة عن معايير النظام الاجتماعي، وعادة تأخذ صورة التعبير العلني أمام الناس لذلك تكون فعالة في ضبطها، وتنفرد السخرية بصفة خاصة بدورها الفعّال في هذا الصدد، حيث تميل إلى عزل الفرد عن أتباعه كنوع من العقوبة وذلك على اعتبار أن الفرد إذا فقد إحساسه بالانتماء للجماعة أو بالمشاركة فيها سرعان ما يشعر بالوحدة وعدم الأمن حتى وإن لم توقع عليه عقوبة مادية أو جسدية. وكلما كان المجتمع مثقفاً فإن هذه الآلية تكون ضعيفة والعكس هو الصحيح.**

**ب- إطلاق الشائعات:**

**إنها الثرثرة التي لا حدود لها، وتأخذ صورة الغيبة والإساءة والتجريح والمبالغة في سلوك الإنسان، لذلك يخشى الأفراد إطلاق الشائعات عليهم. وتنتشر الشائعات بين الأميين أكثر من المثقفين، وبين النساء أكثر من الرجال، وفي الأزمات أكثر من الحالة الطبيعية، وفي الحروب أكثر من حالة السلام، وفي المجتمعات التقليدية أكثر من المتحضرة.**

**ت- الفضيحة:**

**تختلف الفضيحة عن الثرثرة وإطلاق الشائعات في أن هدفها الأول ليس تغيير طريقة السلوك، وإنمّا عزل الشخص تماماً وإيذائه ومحاولة إبعاده عن المجتمع بحيث يكون في ذلك عبرةً لغيره، أي أنها تضع الحدود التي لا يمكن الخروج عليها.**

**فاعلية الضبط الاجتماعي:**

**يمكن أن نناقش فاعلية الضبط الاجتماعي في ضوء الآليات السابقة، وبالاستعانة بما أورده "محمد عاطف غيث" في كتابه الموسوم بـ "علم الاجتماع" في هذا المجال بشيء من الإيجاز وعلى النحو التالي:**

**" ناقش عدد من المؤلفين موضوع الأثر الذي تتركه وسائل الضبط الاجتماعي في الحصول على مزيد من الامتثال داخل الجماعة والمجتمع، وتوصلوا لعدد من الاتجاهات يمكن حصرها في اتجاهين أساسيين:**

**الأول- يرى أنصار هذا الاتجاه أن فاعلية الضبط الاجتماعي تتوقف على أدواته المختلفة، فكلما زادت هذه الأدوات نفاذاً إلى الأفراد واصطبغت بالطابع الرادع في أكثر الأحيان، كلما ظهرت آثار الضبط الاجتماعي في التقليل من نسب الانحراف لاسيما ذلك التنّوع الذي يكون فيه اعتداء جسيم على المعايير الاجتماعية ذات الطابع العام. ويدعم أصحاب هذا الموقف بقولهم إننا نريد وسائل ضبط في المجتمع الحديث لها قوة القهر والإلزام التي كانت للوسائل العرفية في المجتمعات القديمة أو البسيطة. وأصحاب هذا الاتجاه يؤكدون على القانون وضرورة توسيع نطاقه وتحديد قواعده بحيث يكون صالحاً لموجهة أي انحراف مهما صغر في المجتمع رعايةً للنظام والامتثال.**

**الثاني- أصحاب هذا الاتجاه لاينكرون أهمية وسائل الضبط الاجتماعي ودورها في تحقيق الامتثال، ولكنهم يرون أيضاً أن الفاعلية النهائية للضبط الاجتماعي تتوقف على طبيعة الجماعة من ناحية، وعلى نمط التنشئة الاجتماعية من ناحية أخرى. لذلك يحاولون أن يركزوا أنظارهم على الظروف الاجتماعية التي قد تؤدي إلى الانحراف أو إلى الامتثال. ومثال ذلك قولهم: "إنه كلمّا كانت الجماعة محببة إلى الفرد زادت فاعلية وسائل الضبط الاجتماعي في رد الفرد إلى طريق الجماعة المرسوم. ومثال ذلك أن أحد عوامل انحراف الأحداث ترجع إلى أن الحدث لا يتطابق مع والديه. ومن ثم لا يقدّر عضويته في جماعته الأسرية، ذلك لأن الأب هو رمز السلطة وعندما يعارض الطفل أباه فإنه غالباً ما يعارض كل رموز السلطة الأخرى مثل الشرطة وحرّاس السجون، وربما كانت معارضة الحدث لوالده طريقاً يجعل شعوره يتحول بصفة عامة إلى نوع من الإحساس بأن المجتمع كله يقف ضده، ومن ثم تنمو عنده اتجاهات العصيان ويصبح متأثراً بالرغبة في الانتقام".**

**كذلك تتوقف فاعلية الضبط على استقلال الجماعة، بمعنى أنه كلمّا زاد استقلال الجماعة قلّت فرص الانحراف، وزادت فاعلية الضبط. ودلّلَ أنصار هذا الاتجاه على قولهم بدراسات مقارنة أجريت على عدد كبير من الجماعات والمجتمعات المحلية تمثل ثقافات مختلفة وتتدّرج في درجة استقلالها. كما أنهم وجدوا أيضاً نتيجة لدراساتهم لعدّة جماعات مختلفة البناء والوظيفة في مجتمع معين، أن الأوامر المتعارضة أو التوجيهات غير المتناسقة تؤدي إلى العصيان أو الإحباط. وفي هذا المقام تبيّنوا أن الأوامر ذات الطابع الايجابي والمتناقضة في الواقع تؤدي إلى زيادة نسبة العصيان، كما أن الأوامر السلبية تؤدي إلى الكبت وإلى المظاهر العصبية.**

**وبهذا؛ فالاتجاه الأول يركز على وسائل الضبط الاجتماعي وحدها في تحقيق الامتثال، أمّا الاتجاه الثاني، فيركّز على التنشئة الاجتماعية وطابع الجماعة وينسى وسائل الضبط الاجتماعي المتضمّنة أصلاً في عمليات التنشئة الاجتماعية. من هنا فإن كلا الاتجاهين لا يصلح كل منهما على حدة لبيان فاعلية الضبط الاجتماعي. وبذلك يصبح المزج بين الاتجاهين هو الطريق الأسلم لتحقيقه، ويتأيد ذلك بوضوح في المجتمعات المعاصرة التي تجعل من القانون الأداة الكبرى في الضبط الاجتماعي، ذلك أن ما يلحق قواعد القانون ونصوصه من تعديلات إنما يتم لمواجهة التغيرات التي تحدث في الجماعات المختلفة المكوّنة للمجتمع، والمشرّع يضع في اعتباره دائماً ضرورة استقراء الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ليكون لتشريعه فاعلية. ومن الأدلة على ذلك أن كثيراً من التشريعات ولدت ميتة لأنها جاءت غير معبّرة عن طبيعة تلك الظروف."**

1. "\* " هناك طقوس تمارسها المجتمعات البدائية تسمى طقوس التكريسInitiation Cermonies أو حفلات التكريس، وهي طقوس تعد جزءاً من طقوس الانتقال، ولطقوس التكريس في الأغلب صبغة فوق طبيعية، لأنها تجري في مناسبات هامة، أو مراحل فاصلة في حياة الفرد أو المجتمع. وتتضمن طقوس التكريس ( الختان)، واختبار القدرة الجسمية بالصوم، والتعذيب، وقلع الأسنان. كما تتضمن العزل في معسكرات خاصة، والتدريب على فنون وأعمال معينة. وتعتبر طقوس التكريس نقطة بدء لفترة أو لمرحلة جديدة لمن يتجاوزونها، تتغير بعدها منزلتهم ومسؤولياتهم وواجباتهم، ويكتسبون حقوقاً جديدة.وتنتشر هذه الطقوس بين الجماعات الطوطمية ومجتمعات الرعاة. وتشير لوسي مير إلى نوع آخر من الطقوس التي تقيمها المجتمعات البدائية لاسيما سكان استراليا الأصليين، تسمى طقوس التكثيرIncrease Ceremonies ابتهالاً إلى معبوداتها كي تكثر من النباتات البرية، وحيوانات الصيد، التي يعيشون عليها. وتدعى هذه الطقوس كذلك (حفلات التكثير). ( لوسي مير، مرجع مستخدم، ص ص401-405). [↑](#footnote-ref-1)
2. "•" الأزانده (Azande ) (Zande): شعب أفريقي يقطن إقليماً يقع جنوبي غربي السودان وشمالي زائير وجنوبي جمهورية أفريقيا الوسطى. كان أكثر من نصف اقتصاده، حين درس عام (1920) يقوم على الزراعة المتنقلة في الغابات. وكان يمارس إلى حدٍ محدود الصيد البري، وإلى حدٍ محدود جداً صيد السمك وجمع الغذاء، ولا يربي الأزانده الحيوانات خلافاً لما تفعله القبائل المحيطة به كافة، يشيع بينهم الاعتقاد بالسحر الضار، ووجود الجمعيات السرية، واللجوء إلى الإيحاء بالسم. أطلق عليهم الرحالة الأوربيون اسم (شعب نيام نيام). قدرت نفوسهم عام(1949) بـ (750- 1000) نسمة.( لوسي مير، مقدمة في الأنثربولوجيا الاجتماعية، مرجع مستخدم، ص390.) [↑](#footnote-ref-2)
3. "• " إن ما ذكر عن الآيات القرآنية أعلاه لا يصرح القرآن الكريم بأنها أمثال، ولم ترد فيه حكاية لأمثال شائعة، وإنما هي أمثال في نظر العلماء، من حيث ما ورد فيها من معنى قريب الصلة بمعاني أمثال معروفة سائرة. ومن هنا سميت أمثالاً كامنة. للمزيد من المعلومات ينظر عبد المجيد عابدين، الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها في الآداب السامية القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989. [↑](#footnote-ref-3)